الدرس الثامن والعشرون

تفسير سورة المزمل [١٨: ٢٠]

{السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)}

{السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ}، يعني منشق متصدع كما أخبر الله عز وجل في سورة الحاقة {وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ} [الحاقة: ١٦]، فهذا من مشاهد يوم القيامة التي يتكرر ذكرها في القرآن.

وقد اختلف في مرجع الضمير في قوله: (به)، فقال بعض المفسرين: أي بسببه، أي بسبب يوم القيامة فإنه من لوازمه. وقيل: منفطر به أي بالله عز وجل، ولكن هذا القول ضعيف لأنه لم يرد له ذكرٌ فيما مضى حتى يُرجع الضمير إليه.

{كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا} هكذا يقر الإيمان في القلوب، وتمتلئ يقينًا بها

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

أخبر الله عز وجل، فلا يمكن أن يتخلف وعد الله عز وجل، إن الله لا يخلف الميعاد، وهذا القطع واليقين والجزم هو ما يسمى الاعتقاد، لأن الاعتقاد مأخوذ من العقد وهو الشد والربط والجزم.

{إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا}

يعني هذه السورة أو هذه المواعظ التي سبق ذكرها تُذكر القلوب وتحييها، والذكرى تنفع المؤمنين؛ لأن القلب يصدأ كما يصدأ الحديد، وجلاؤه ذكر الله، فالذكرى تصقل القلب وتعيد له بهاءه ورونقه، وتأثره واستجابته. أما إذا كان القلب بعيدًا عن الذكرى، فإنه يقسو، ويصبح قلبًا أغلفًا، تحيط به حجب، وأغشية، وران، وغان، تمنع وصول الحق إليه كما قال ربنا عز و جل: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٤]، لذلك تجد الغارق في الشهوات لا تؤثر فيه المواعظ يحتاج إلى صدمة كبيرة حتى تنفُذ إليه الذكرى، فالمرء بأمس الحاجة إلى أن يتعاهد قلبه بالذكرى، ولا يسترسل في الغفلات، ليظل قلبهُ حيًا يقظًا.

{فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا}، هذه الآية رد على الجبرية الذين ينكرون فعل العبد ومشيئته، فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية يثبت للعبد مشيئة، ويثبت للعبد فعلًا، فقوله: (من شاء) إثبات المشيئة للمخاطب، وقوله: (اتخذ) إثبات الفعل والأداء. فالعبد مشيئة حقيقية بها يأتي وبها يذر،

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

وله فعل حقيقي يصح ويصدق إسناده إليه كما قال ربنا عز وجل {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل: ٥- ١٠]، فالذي أعطى واتقى وصدق بالحسنى هو العبد والذي بخل واستغنى وكذب هو العبد. ولهذا كان الثواب والعقاب مرتبين على ما يبدر من العبد من طاعة أو معصية، وماربك بظلام للعبيد، فليس لأحد أن يحتج على الله بقدره السابق، فإنه سبحانه قد قدر المقادير وفرغ من العباد، لكنه أخفى القدر وأظهر الشرع وقال: اعملوا فكلٌ ميسر! فالإنسان فيما يأتي وما يذر يجد في نفسه إرادة ومشيئةً وفعلًا حقيقي ليس صورياً ولا قسرياً ولا قهرياً بل مع سبق إصرار ومحض اختيار فلذلك رتب الله عليه الثواب والعقاب، فهذه الآية رد عظيم على القائلين بالجبر الذين يزعمون أن العبد مجبور على فعله. فلا يستقيم أن يقال: العبد مسير بإطلاق ولا يقال: العبد مخير، بإطلاق. بل ينبغي أن يقال العبد ميسر لقوله تعالى، {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} و {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ)[1]. وقوله: {فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا} [المزمل: ١٩] ليس المراد التخيير إن شئت اتخذ وإن شئت لا تتخذ! المقصود أنه لا عذر لأحد، فمن أراد النجاة والفكاك فليتخذ إلى ربه سبيلًا، من جنس قول الله تعالى: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ

[1] أخرجه البخاري رقم (٤٩٤٩)، ومسلم رقم (٢٦٤٧).

﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]، ليس المقصود أنني أبحت لكم ما تشاؤون لكن معناه أنتم مجزيون بما تشاؤون، ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] ليس مراده تسويغ الكفر وإنما المراد أن هذا وهذا كلاهما بمقدورك فلتختر لنفسك ما تختار وسيترتب على مشيئتك واختيارك الثواب أو العقاب.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾، كان الأمر في أول الإسلام على الوجوب كان السابقون الأولون من المؤمنين مأمورون شرعاً بالقيام، ثم إن الله سبحانه وتعالى خفّف عنهم وأسقط عنهم وجوب قيام الليل و أبقى استحبابه وفضله والترغيب به.

والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام خطاب لأمته إلّا أن يقوم دليل على التخصيص وهذه قاعده أصولية، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ [التحريم: ١، ٢]، فالخطاب موجه للنبي ﷺ لكنه شمل أمته بدليل قوله: (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ)، إلا أن يرد ما يدل على التخصيص كقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

{عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ} أي لن تستطيعوا الإيفاء به لما يعرض لكم من العوارض الحياتيه، فتاب عليكم.

{فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} : والمقصود به، أي صلُّوا فالقراءة تأتي بمعنى الصلاة والصلاة تأتي بمعنى القراءة كما قال تعالى: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا} [الإسراء: ١١٠] أي لا تجهر بقراءتك ولاتخافت بها فسمى القراءة صلاةً، وهنا العكس.

ثم ذكر العوارض التي تعتري بني آدم : {عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، هذه نماذج للأعراض التي تعتري بني آدم أحدها المرض وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا)[٢] وقال عمران بن حصين: (كان بِيَ النَاصُورُ، فسألتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: صَلِّ قائمًا، فإنْ لم تَستطِعْ فقاعِدًا، فإنْ لم تستطِعْ فعلى جَنبٍ.)[٣]. إذاً فهؤلاء من أهل الأعذار؛ ومن ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد خفّف الصلاة عن المسافر فحطّ الرباعية إلى اثنتين، وأباح الجمع بين الصلاتين للمرض، وللسفر، وللمطر، ولعموم الحرج، كل هذا من تخفيف

---

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٩٩٦).

(٣)خرجه البخاري رقم (١١١٧)، وأبو داود رقم (٩٥٢) واللفظ له، والترمذي رقم (٣٧٢)، والنسائي رقم (١٦٦٠)، وابن ماجه رقم (١٢٢٣)، وأحمد رقم (١٩٨١٩)

الله تعالى على عباده وتيسيره، وأرقى من ذلك أن يكون مشغولًا بالجهاد في سبيل الله كما قال الله تعالى: {وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}. يعني صلوا ما تيسر من الليل، وقد استدل بهذه الآية أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله على أن قراءة الفاتحة ليست ركنًا؛ لأنه قال: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} أي القرآن، فقالوا: لو قرأ بأي شيء لصحت صلاته. ولكن هذا لا يتم لوجود الأحاديث الصحيحة المتفق عليها، على ركنية الفاتحة كحديث عبادة بن الصامت: (لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ)[٤]، وحديث: (كُلُّ مَنْ صَلَّى صَلاَةً فَلَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَصَلاَتُهُ خِدَاجٌ)[٥]يعني ناقصة، فيكون هذا من باب بيان السنة للقرآن، فمعنى قوله: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}، يعني مع قراءة الفاتحة؛ في الصلاة فإن قراءة الفاتحة ركنٌ في كل ركعة في كل صلاة، والعلماء في هذه المسألة لهم أقوال مختلفة، فمنهم من يوجب قراءة الفاتحة في كل ركعة، في كل صلاة، فرضًا أو نفلًا، سرية أو جهرية، لكل مصلٍ، إمامًا كان أو مأمومًا أو منفردًا، وهذا مذهب الشافعي وهو اختيار شيخنا ابن عثيمين رحمه الله، ومنهم من يرى أن قراءة الإمام قراءة لمن خلفه في كل صلاة وهو مذهب الحنابلة، ومنهم من يفرّق بين السرية والجهرية.

ثم قال: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا}،

---

(٤) أخرجه البخاري رقم (٧٥٦)، ومسلم رقم (٣٩٤).

(٥) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار رقم (١٢٨٥).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

وإقامة الصلاة أي فعلها على وجه الاستقامة.

{وَآتُوا الزَّكَاةَ}، أي أدوها طيبة بها نفوسكم لمستحقيها فيما أوجب الله فيه الزكاة من الأموال وهذا يدل على أن هاتين الشعيرتين من أعظم مباني الإسلام، ودومًا يقرن الله تعالى بينهما ولا تكادان تنفكان، حتى إن الله تعالى يجعلهما مع الإخلاص والتوحيد دينَ القيِّمة؛ {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة: ٥]، وهو يدل أيضا على أن فرْضية الزكاة وقعت في مكة، وإنما تأخر بيان أنصبائها ومقاديرها إلى المدينة، ونجد هذا في سور مكية أخرى، كقول الله تعالى: {وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [فصلت: ٦، ٧].

ثم قال: {وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا}، هذا إغراء من الله لعباده لإقراضه؛ لأن هذا القرض سيُرد، وسيُرد مضاعفًا، ففيه إغراء عظيم للبذل والنفقة.

{وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا}، هذا طمأنةٌ و إغراء بأن كل ما يُقدّمه العبد فإنه لا يضيع؛ {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا} [آل عمران: ٣٠]، فلا يضيع عند الله شيء، فلا تيأس على ما فات، ثق أن الله قد حفظه.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

{وَاسْتَغْفِرُوا اللهَّ إِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، ما أحسن هذا الختام الذي يُنبئ على حاجة الإنسان إلى الاستغفار حتى في ختام الطاعات؛ لأن العمل لابد أن يعتريه خلل يحتاج إلى ترقيع، ونقص يحتاج إلى تكميل، وهذا يكون بالاستغفار، ولهذا نجد أن المصلي إذا انفتل من صلاته بالسلام قال: (استغفر الله، استغفر الله ، استغفر الله)، وهكذا ندب الله المؤمنين في مناسك الحج فقال: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَّ إِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَّ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ } [البقرة: ١٩٩، ٢٠٠]، فاستغفار الله طلبُ مغفرته مشروع لما هو أعم من فعل الذنوب، فيشمل ما قد ينوب العبادة من الخلل والتقصير.

{إِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، وهما اسمان كريمان من أسماء الله الحسنى تضمنا صفتي المغفرة والرحمة.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله